العراق

صلتى بالعراق قديمة تعود إلى زمن كنت ما أزال فيه بظهر الغيب . فأنى قد انحدر من جباله الشمالية إلى مصر طالباً للعلم ثم مستوطناً . وكان لا يفتأ يذكر العراق ويتمدح به ويتمنى لو يعود مرة أخرى إلى أحضان الجبال . فلما نفست عليه الأيام ما أراد تمنى على الله أن تذهب ابنته إلى العراق لتخدم شعباً أحبه وأخلص له الوداد حتى اللحظة الأخيرة . وكانت الفكرة خلابة ، وخاصة لفتاة لم تكن قد خبرت من الحياة شيئاً ، ولا ميزت بعد بين حلوها ومرها . . وقد كان أن اتصلت بالعراق مرة أخرى . وكم جدول فى الأرض راجع منبعه !

***

هبطت بغداد منذ ثمانية أعوام طوال . ذهبت لأدرس فى مدارسها . وكانت فكرة مشاركتى فى رفع مستوى الفتاة العراقية ، ولا زالت تلهبنى حماساً ، وتزيدنى إيماناً بالشرق والفتاة الشرقية وتملأ قلبى بالآمال الكبار والأمانى الجسام . على أن كل ذلك لم يكن يخفى عنى قسوة ما أخذت على عاتقى من رسالة فى الحياة اخترتها وفضلتها ثم آثرتها على كل الرسالات لأنها رسالة مقدسة قلّ من يفيها حقها من الرجال !

لم تكن فكرتى عن بغداد صحيحة ؛ ولعل السبب فى ذلك راجع إلى مدرس التاريخ ومدرس الجغرافيا حفظهما الله ! أذكر أن مدرس التاريخ قال لنا إن بغداد « دار السلام » مدينة مدورة لم يبن مثلها من البلاد فى العصور الوسطى . وأذكر أن مدرس الجغرافيا قال إن بغداد مدينة بناها من بناها على الضفة الشرقية من دجلة لحسن موقعها . وأذكر أن خيالى صور لى صوراً متألقة بهجة تروح فيها الجوارى وتغدو الغلمان ، ويطوف بها الهمس والألحان والأنغام . ولشدما دهشت حينما لم أجد شيئاً من هذا . فبغداد ليست مستديرة اليوم

ولا مربعة . وبغداد تحتل ضفتى دجلة احتلالا رائعاً . وبغداد آخر الأمر بلد منكمش على العمل ، كادح ، يساير العصر ويحاول ألا يتخلف عن موكب الحياة !

طردت عن خاطرى الأشباح ، شبح مدرس التاريخ ، وشبح مدرس الجغرافيا ، وشبح ألف ليلة وليلة ، وبدأت من فورى أتصل بالواقع الملموس والتاريخ الحى المسطور ، والجغرافيا النابضة الحية . على أن جولتك الأولى فى بغداد لا تعطيك — ولن تعطيك — فكرة قيمة عن البلدة . وهذه حال يفهمها كل مسافر وكل رحالة . ولكنه ينسها فى بغداد والعراق أكثر من أى بلد وقطر آخر . فأمر العراق مستسر يدق عن الفهم للوهلة الأولى . وقد لا أعدو الحقيقة إن قلت إنى أسفت ، وإن قصارى عزائى كان أنى سأبقى بها سنة دراسية واحدة لا أكثر . ولكننى لن أعدو الواقع إن قلت إننى بقيت بها ثمانية أعوام طوال عراض ولا يعلم الا الله متى أعود . وأكبر ظنى أن ذلك لن يكون إلا اذا فرغ ما فى قلبى من حب للعراق وناشئته ، وانفض عن ذهنى ما فيه من استمتاع فى التقدم بالفتاة العراقية ورفع مستواها ! وهذا — فى أكبر اليقين — لن يكون !

قلت بقيت ببغداد ثمانية أعوام عرضت لى فيها من الأحداث ما قد يتنكب بالصبور عن سبيله التى رسمها لنفسه ، وعرضت لى فيها من الفرص ما كان أيسره جديراً أن يجعلنى بأمريكا أدرس وأتم تعليمى وثقافتى منذ زمن بعيد . ولكنى صبرت وصابرت الأيام حتى اكتحلت عينى بثمار غرسى ؛ وصبرت وكافحت حتى نجحت فى عدم السفر إلى أمريكا ! والحمد لله على الفوزين !

***

خير لى أن أرسم لك صورة صغيرة ترى منها العراق كما أراه : كان أول ما تعلمت من لهجة العراق كلمة « جُبَل » حينما سألت عن وزارة المعارف و « جُبَل » هذه معناها الى الأمام . وعدت أسأل عن وزارة فقيل لى ثانية ، وثالثة ، ورابعة : « جُبَل » — إلى الأمام . . . ومن سار على الدرب وصل !

« جُبَل » هو شعار العراق ؛ كذلك علمتنى المشاهدة والتجربة . فالعراق يتقدم فى كل مرافق حياته الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والعمرانية « جُبَل » دون أن ينظر إلى الخلف . فان فعل فانما ليرى كم قطع من الطريق وهى طريقة يستطيع بها أن يقدر بالضبط ما يجب عليه أن يقطعه ليبلغ نهاية

الشوط دون أن يخامره اليأس أو يدب فيه الكلال ، وهو فى هذا أشبه شىء برجل يشرب كأسه الأولى ، فهو ينظر إلى مقدار ما أفرغ فى جوفه حتى يدرك مقدار ما عليه أن يكرع !

لم تكن ترى فى بغداد منذ أمد قريب سافرة واحدة اللهم إلا اليهوديات وقليلا من المسيحيات . تعال اليوم واشهد الصراع والتنازع بين السفور والحجاب ، بين الجديد والقديم . لن تجده « دراميا » عنيفا كما كان فى مصر أيام قاسم أمين ولكنك تجد أن الجديد ـ السفور ـ يتقدم « جُبَل » دون مبشر يتمدح بمزاياه ويعدد مناقبه . السفور يتقدم تقدم الواثق الظافر . فما حاجته إلى العداء وإثارة البغضاء . قالت لى إحدى الصديقات عن السفور إنه أمر لو جرؤت عليه عراقية منذ عشرين سنة لكان مصيرها رهناً بمشيئة الجن الأحمر ، ولكنها أقدمت على السفور فكان مصير المسكينة أن نظر لها أبوها الغاضب المحنق نظرة شزراء قاسية . . . طويلة جدا .

والتعليم هو الآخر يتقدم « جُبَل » ، دون توقف . واختلاط طلاب العلم وطالباته فى المعاهد تحت أجنحة الملائكة الموكلة بطلاب العلم يحدث دون أن تحول التقاليد أو تثور أو تنادى بفصل الجنسين ، كما حدث فى مصر منذ سنوات قلائل ! إن العراق يعلم أن التقاليد إنما هى عادات جمدت . وكيف يرضى بالعادات الجامدة شعب قوى يتقدم فى موقف الحياة « جُبَل » ؟ ! حقا أن لها سلطاناً قويًا لايستهان به ، ولكن هذا الفهم لها يحدّ من سطوتها ويكسر من شوكتها بحيث إننا لا نكاد نحس ببطشها أو وخزاتها حتى باحتجاجها إلا قليلا ! تيار التقدم الجارف أقوى من كل شىء .

المدارس تزداد للجنسين بشكل يدعو إلى الإعجاب ؛ وما أظن أن مدينة تخلو من مدرسة للبنين وأخرى للبنات . وأعرف مدينة أريد أن تنشأ فيها مدرسة للبنات فقامت قيامتها ، وأجمعت الآراء على مقاومة هذا العمل « الشنيع » فما كان من الحاكم إلا أن استأجر بيتاً علق على بابه قطعة كتب عليها « مدرسة . . . لبنات الموظفين فقط » ! ولم يعترض أهل المدينة . فالموظفون غرباء عن المدينة فهم أحرار فى بناتهم ! ونمت المدرسة وكبرت ، وأنشئت مدرسة أخرى ثانوية ولكن ليس لبنات الموظفين فقط !

ولمساء بغداد جمال عجيب : ترى الموظفين ، صغارهم وكبارهم ، يتأبطون كتبهم

ويهرعون إلى مدارسهم حتى يستدركوا ما فاتهم تحصيله فى وقت لم تكن المدارس فيه إلا شيئاً تنظر إليه التقاليد النظرات الشزراء . يقبلون على العلم ، وينهلون من موارده ، ولو على الشموع ، ولو فى البرد القارس أو الحر الخانق . .

على أن أعظم ما يعجبنى هو نهضة الفتاة العراقية وصحوتها وتقدمها . وتلك سمات كان من الممكن للملاحظ العادى أن يفطن إليها لو أنه نظر إلى الفتاة العراقية وهى تمشى . فهى تمشى ممشوقة كالسهم فلا تلكؤ ولا تلكع ، ولا تخلع ، ولا التفات إلى يمين ويسار بل هدف انطلق إليه سهم مريش ! وإننى لن أعدو الحقيقة إذا قلت إنه لو أتيح للفتاة العراقية تلك الفرص التى أتيحت وتتاح للفتاة المصرية ـ إذاً فويل للمصرية من أختها ! وكثيراً ما فكرت فى هذا ، وأنا أعلّم الطالبات ، وأدربهن على التدريس ، وأترك لهن حرية التحدث والنقاش وإبداء الرأى ، ومعالجة شتى الأمور . وكثيراً ما أدهشنى مرهن وهن يتولين مرافقهن فى كفاية محيرة !

وإن أنس لن أنسى الاعتماد على النفس . فهى مزية شعبية إجماعية ، لايكاد يتفاضل فيها أهل العراق قاطبة . ولعل أبرز ما يصورها قصة رواها من أثق بروايته : كان له صديق عراقى يدرس معه فى الجامعة المصرية . واتفق أن سارا فى شارع سليمان باشا . فسأل المصرى زميله العراقى : أعندكم ببغداد مثل هذا ؟ فيجيب العراقى فى صبر الحليم : لا . وطفق المصرى يسأل ، فطفق العراقى يجيب بلا ، حتى ضاق العراقى فسأل زميله المصرى : ولكن قل لى : أعلى أكتافكم أنتم قامت هذه الأشياء الجميلة التى لا تجد مثلها فى بغداد ؟ وكم يملك المصريون منها ؟ وما نصيبهم من الاشتراك فى هذا التقدم ؟ وكان ما قاله العراقى صحيحاً . فإن بغداد تتقدم فى كل مرافقها على أكتاف العراقيين وحدهم ، وحدهم أفهمت ؟ « وليُقَسْ مالم يقل » كما يقول أهل النحو !

أحسبنى أطلت عليك . ولكن لا أريد أن أنتهى من مقالى هذا دون أن أعتذر إليك عن عجزى عن الإحاطة بالموضوع كله ؛ ولكنى أعتقد أن كلمة جبَلْ » ستتم لك ما تركته ناقصاً ، وسترسم لك ما لم أصوره « جُبَلْ » !

جاءنى مصرى حديث العهد بالعراق وأخبرنى أن أول ماسمعه من لهجة العراق هو كلمة « جُبَل » فلم أدهش . كنت أعرف ذلك ! وسألنى عن معناها فتبسمت وقلت « إلى الامام » . فصاح وهو ضيق الصدر : « كل شىء جبل ، جبل ! شىء

يجنن . أما عندهم شيء آخر ؟ » . قلت : « لا ! ! إن هذه أول كلمة تعلمتها . وأحسبها آخر كلمة ستنساها إذا أحسنت معرفتك بالعراق » . واشتكى المصرى الحديث العهد فيما اشتكى منه ، بطء الناس فى السير . قال : « امشى فى شارع الرشيد . فأرى الناس يتقدمون فى بطء . أدفعهم فلا هم يندفعون ولا هم يفسحون لى الطريق » . فقلت له : « أسمعت المثل الإنجليزى القائل : ببطء ولكن فى ثقة » .